

ذكرى الشريف الرضى

پدیدآورنده (ها) : الوائلی، احمد

علوم قرآن و حدیث :: نشریه تراثنا :: شوال - ذوالحجة ۱۴۰۶، السنة الأولى - العدد الخاص

صفحات : از ۱۴۸ تا ۱۵۳

ذكرى الشريف الرضي

الدكتور الشيخ أحمد الوائلي

لكَ رغمَ الهجيرِ روض خَضِيلُ الشَّذى الغمرُ والنَّسيمُ البليلُ
والجِنانُ المفوفاتُ لديها أُكلٌ دائمٌ وظِلٌّ ظَليلُ
مُنعشٌ من ربيعهِ يَبَسَ الدُّنيا وبالغيثِ تستجيرُ الرُّمولُ
ومدى عشتَ بين بعدين منهُ سَحَرَ الدهرَ فجرُه والأصيلُ
ليس عمراً بل عشتَه ألْفَ عُمْرٍ كلُّ عُمْرٍ بهِ عَطآء جَزيلُ
سوف يبقى والرائعُ الفذُّ يبقىٰ لم ينلْ روحَه المدى المستطيلُ
تَتساوى به الروائعُ لا يُعرف فيها مُقصِّرٌ وفضيلُ
السَّجايا به توائمُ بيضٌ بعضُ أوصافها الأنيقُ الجميلُ
والمزايا بهِ لظى وهجيرٌ وشموخٌ ورقَّةٌ وهَديلُ
هو سرُّ الإعجاز أنْ يكبرَ المظروفُ ظرفاً ويصنعُ المستحيل
هكذا الأربعون عمرُك أغنانا وقد يفعلُ الكثيرَ القليلُ

* * *

أيُّها الواحدُ الذي بينَ بُرديه كثيرٌ ورُبَّ فرد قَبيلُ
دخلَ الكونَ خالداً ثمَّ لم يرحل عنه وللأنام الرحيلُ
وأخُ الفكر كالحقيقة يبقى حالُهُ والأحوال طُرّاً تَحُولُ
حملته العيونُ بدراً مضيئاً في الأماقي لا يعتريه أفولُ
ورأىٰ الوعيُّ فيه فكراً أصيلاً وقليل في الكون فكرٌ أصيلُ

سكب الروحَ في إطار أنيق   فإذا الفكرُ للحياة عَديلُ
وأرانا تراثه صوراً منه   ويحكي الإنسان فكر وقيلُ
فإذا عفَّةٌ ومجدٌ وعزمٌ   بمدىٰ النَّجم حبلُه موصولُ
هِمَّةٌ تعبر النجوم لأسمى   وترى أنّ كل صعب ذلولُ
سِمةُ الصقرِ يحسنُ النَّزْعَ حتى   لو أضرَّتْ بأخمصيهِ الكُبولُ
سخرت من خلافة ليس إلاّ   طيلسانٌ مزركشٌ وطبولُ
عندها المجد في دروب النبوّات فما بالكرسيّ عنه بديلُ
كان هذا وكان أكبر من هذا فأنّى يَطالُه التفصيلُ
نسخةٌ من أبي تراب رؤاها   وعَلىٰ الفرع تَستَبين الأُصولُ
وانتساب الأنغام للعُود طبعٌ   ما بهِ خُدعةٌ ولا تمثيلُ

* * *

يا يَراعاً ينمنم الورد من نهج عليٍّ والنهجُ سِفْرٌ جليلُ
دَلَّلَ النبرُ أنّه لِعليٍّ   رُبَّ قول عليه منه دليلُ
إنّه في البيان شمسٌ فلا الفانوسُ من سِنْخهِ ولا القنديلُ
نَظَمَ الرائعات مَبنى ومعنى   فإذا الأحرفُ الشّذىٰ والخميلُ
كلُّ فصل أبو تراب بهِ يَبدو   فتهتزّ بالهَدير الفُصولُ
غير أن النفسَ المريضة تهوىٰ   أن يغطّي الحقائقَ التَّضليلُ
زعموه نسجَ الرضيّ ومَهْلاً   أين منن هادر الفُحولِ الفصيلُ
لا تُعِرْ قولَهم فما هو شيء   كي يصفيه الجرح والتعديلُ
إنَّه العَجْزُ والقُصور وماذا   غير أنْ يحسدَ المتينَ الهزيلُ
قد أفاضت «مصادرُ النهج» فيما رُدَّ فيه معاندٌ وجهولُ
و درىٰ الباحثون في أنَّ دعوىٰ   عَزْوه للرضيِّ قولٌ عليلُ
وأبى الحاقدون أن ينظروا إلا ازوراراً وأعينُ الحقدِ حُولُ
ولو «النَّهجُ» نهجُ صَخْر بن حرب   فعلىٰ القَطْع إنّهُ مَقْبولُ
لكن النَّهجُ كان نهجَ عليٍّ   وَعَليٌّ عَلىٰ الدّنيِّ ثَقيلُ

* * *

إيهْ بغدادُ يارُؤى مترفات   ما مَحاها الزَّمانُ مَهْما يَطولُ
يومَ كانتْ وللفوارسِ فيها   ألف شوط وللخُيولِ صَهيلُ
والسَّرايا طيوبُها من نَجيع   ومن النَّقع فَوْقَها إكليلُ
فاتحات لم تعرف الزهو والبغيَّ ولا كان هَمَّها التقتيلُ
إنّما همُّها حياةٌ عليها الحُكم نُعمى، والعَدلُ ظلٌّ ظليلُ
عندَها للجهادِسيفٌ وللرحمة قلبٌ وللهُدى تَهْليلُ
و ببغدادَ سيّدٌ مَلأَ الدنيا صَدى والزمانُ عبدٌ ذَليلُ
ذاك عصرٌ مُحفّلٌ بصُدور   مُتْلَعات مازاحمَها الذّيولُ
من مزاياه مُرتضى وَ رَضيٌّ   و نَصِيرٌ وصاحبٌ وخَليلُ

* * *

أيُّها الكرخ ألف باقة ورد من مَغانيك عطرها مطلولُ
خطرتْ حلوة فأنقت الدُّنيا   وَ غَنَّتْ على رُؤاها الطُّلولُ
نَفَثَتْ سِحرَها علىٰ كلِّ ذِهْنٍ   فَلها عندَ كلِّ ذِهْن مُثُولُ
و تبارت بالعلم والأدب المترف فيها قرائحٌ و عقولُ
في صُروح للعلم يسرح في أبعادها الفكر والفهوم تجولُ
ومحاريب عامرات بآل الله والليل ستره مسدولُ
كلّ حَبْر بَراهُ حسنٌ خَفيٌّ   فَهْوَ فيهِ المتيَّمُ المَتْبُولُ
إن تلا آي ذكر هزته منها رعدة فهو كالغصون يميلُ
جُنَّ بشر الحافي بها وعرى ابن الفارض العشق فهو نضو نحيلُ
وتسامى الحلاج فالله فيه حالةٌ ذاب عندها لا حُلولُ
عَرَفُوا أنَّ ما سِوى الله وَهمٌ   وبأنَّ الحياة مرعى وَبيلُ
وَحَداهُم حاد مِنَ الغيبِ فاشتاقوا   وَجُدَّ السُّرىٰ ولَذَّ القُفُولْ
و لنار الحبيب تومىء كف هذه النار نار ليلى فميلوا
رَتَعُوا بالحِمى فهامُوا بوجه   ذي جَلال جَلالُه لا يَزولُ

* * *

و بوعيي يا كرخ في الطرف الثاني هوى ذاب في جواه رعيلُ

إذ مقاصير ألف ليلة أسمار لديها الشهيُّ والمعسولُ
نَفَذَ الدَّهرُ والمفاتِنُ مِنها   لمْ تَزَلْ في الزَّمان نَبْعٌ يسِيلُ
ولَيالٍ تَنوَّرتْ بِنُجُوم   قمرُ الكرخ بَينَهُنَّ ضَئيلُ
و اللذاذاتُ مِن مفاتن قصر الخلد منع للصب او تنويلُ
رَسَمَتْها بِجبهة الدَّهر حُسْناً   طَلْعة حُلوةٌ وفَرعٌ رَسِيلُ
فَتَألّق فما عَهِدتُ ابْنَ ألف   مِثْلما أنت وجهُه مَصْقُولُ
هٰكذا أنتَ في خيال الليالي   الأمالي والشَّدْو والترتيلُ
للمصلي و للمغني و للعالم في كونه ذرى و مقيلُ

* * *

إيْه مَهدَ الرَّضيِّ هَلْ تحفظُ العَهْدَ   وَحفظُ العُهُود غالَتْهُ غُولُ
هل تقولُ الصَّوابَ هذا أَصيلٌ   حِينَ يُنْمىٰ جذرٌ وهذا دَخيلُ
إن شر العقوق لوعاد رب البيت يُقصى ويستقر النزيلُ
والشّريفَ الرضيّ يا كرخُ فخرٌ   يوم تُدعىٰ بهِ ومجدٌ أثِيلُ
و لمحض انتمائه لك أمر أنت فيه على السهى تستطيلُ
أو لم ينظم النجوم على افقك عقدا تقلدته العقولُ
فإذا بالفرائدِ البِكرِ سِفْرٌ   ضاء فيه المعقولُ والمنقولُ
وإذا بالقريض عُودٌ وسيفٌ   يَتَغنّىٰ هذا وذاك يصولُ
و إذا بالصفات تحسد راعيها ويزهو بما الحامل المحمولُ
السماح الغني و الأدب المفرط لينا و الاعتداد النبيلُ
خُلُقٌ من محمّدٍ و عليٍّ   في كثير ممّا بهِ تَعليلُ

* * *

و سؤال عندي أبا الحسن اسمعه و قد يعرف الجواب السؤولُ
ليلة عشتها اقتصاصاً وزاداً   الدَّبور احتفىٰ بها والقبولُ
ثمراتُ العناق زادُك فيها   ورُضابٌ مزاجهُ زنجبيلُ

حيثُ يهدي لموقع الّلثم ثغرٌ ويمدُّ الظلام جعد أشيلُ
وأحبّ الظلال ما صنع الشّعرُ ونغْمَ الدَّليلُ ثغرٌ دليلُ
أتراها كانت خيالاً من الحرمان يمليه عالمٌ مأمولُ
قد يغذّي الأحلامَ ليلٌ كريمٌ حين يَقسو لَها نهارٌ بخيلُ
الخدودُ المُصعّراتُ نهاراً نابَ عنها في الليل خدُّ أسيلُ
أم تراها عن واقع ويقين كلّ ليل لَديك عفٌّ بتولُ
اظماتك التقوى ولو شئت تسق لاستجابت واغرقتك السيولُ
فليالي الزوراء لو شئت فيها نغماتٌ و كاعبٌ وشَمُولُ
غيرَ أنْ العِشقَ الكبيرَ صُعودٌ وسماتُ العشق الصغير نزولُ
انت قلب الدنيا الكبير و طبع كل قلب عن الجسوم حمولُ
فإذا ما قستْ عليكَ الليالي دونَ باقي الورى وصُبّتْ ذحولُ
فَسُراها مع الكرام وَجيفٌ وسُراها لِلآخرينَ ذَميلُ
و لئن يُجتبى سواك وتنسى فَلَكم ساد فاضلاً مفضولُ
مِثلما الشمس اهملت واحاط القمر المدح والثناء المكيلُ
و هو من نورها استمد وكم يحرم كدحٌ وللنؤوم الحصيلُ
و كم ابتزت الحياة ادّعاءات وأكدى فضلٌ وسادت فضولُ
وحنانيك أنّ مجدَكَ حقٌّ وإن ازْوَرَّ عن عُلاه جهولُ
والذي رام ينحت الريح مجداً سَلْهُ ماذا سينحتُ الإزميلُ

* * *

ويحُ بغداد إذ تذودُكَ عنها هل دَرَتْ أنّ عرشَها المَثْلُولُ
أنت إن رمت تطردُ الغيث عن أرض فما بعد ذاك إلاّ المحولُ
أنتَ بغدادُ حيثُما كنتَ كانتْ إنَّ بالأهل يشمخُ المأهولُ
والذي ظنَّ أنّه يقتل الفكر فلا شك أنّه المقتولُ
أو رأى أن يذلَّ بالسوط فكراً فسيبقى وهو المهينُ الذليلُ
إنّ للفكر حيثما حلَّ رَبْعاً و رجالاً ودولة لا تدولُ

كـــل زيـــف سينتهي ولـــو استـــتشـــرى دوي مـــن حـــولـــه وصـــلـــيـــلُ
و ســريــرُ المــفــكّــريــن رؤوسٌ وســريــرُ المــوتى تــرابٌ مــهــيــلُ
فــاتــلــق أيهــا الشــريــف فــلــلأشــراف دنــيــا خــلــودهــا مــكــفــولُ

دمشق

٢٩ رجب الحرام ١٤٠٦ هـ

* * *